

الحلقة الخامسة والأربعون

سفر الجامعة

برنامج أنوار كاشفة

نرحب بك مستمعي العزيز في هذا اللقاء الجديد من برنامج أنوار كاشفة. مازلنا ندرس سفر الجامعة لسليمان الحكيم، والذي يُعتبر من أسفار الحكمة. وقد عالج هذا السفر معضلة مشاعر الإحباط واليأس عند الإنسان، حيث أكد أن كل شيء بعيد عن الله هو باطل وقبض الريح.

تابع سليمان الحكيم في اللقاء الماضي الحديث عن القرارات العملية. فنصح الشاب نصيحة هامة جداً إذ قال له: «اذكر خالقك في أيام شبابك». وعلمنا أهمية وفائدة ذكر الخالق في سن الشباب، عندما يكون الشاب مليئاً بالقوة والنشاط. وأن ذكر الله الخالق يعني التوبة والإيمان بالمخلص المسيح.

مستمعي الكريم، عندما يكون الشاب في عزّ قوته لا يفكر غالباً بمستقبل أيامه، عندما يصبح شيخاً. فهو يعيش لحظته الراهنة بكل طموحاتها وتحدياتها وأهدافها، وكأنه سيبقى شاباً طوال العمر. ولا يعير انتباهاً أنه يوماً ما سيغدو شيخاً، فاقداً لقوته ومعتل الصحة. تابع سليمان الحكيم مبرهنناً المزيد عن أسباب نصيحته القائلة: « اذكر خالقك في أيام شبابك ». فكتب قائلاً: « قبلما تظلم الشمس والنور والقمر والنجوم وترجع السحب بعد المطر (الجامعة ١٢:٢). تحوي هذه الأعداد وصفاً استعارياً رمزياً لانحلال الحياة ونهايتها، أو لفترة الشيخوخة.

ومن الصعب تفسير هذا الوصف الخيالي بالتفصيل والتحديد. إن صورة العاصفة المقترية، كظلمة الشمس والنور والقمر والنجوم، وعودة السحب بعد المطر، كلها إشارات إلى انحلال الملكات والقدرات الجسدية، واقتراب الموت. وتابع الحكيم هذا الوصف الاستعاري فكتب قائلاً: « في يوم يتزعزع فيه حفظة البيت وتتلوى رجال القوة وتبطل الطواحن لأنها قلت وتظلم النواظر من الشبابيك. وتغلق الأبواب في السوق. حين ينخفض صوت المطحنة ويقوم لصوت العصفور وتُحط كل بنات الغناء» (الجامعة ١٢:٣و٤).

إن هذا الوصف الاستعاري يشير غالباً إلى انحلال أعضاء الجسد. فحفظة البيت التي تززع هي الأيدي، ورجال القوة التي تتلوى هي الأرجل، والطواحن التي قلت هي الأسنان، والنواظر من الشبابيك التي تظلم هي العيون. والأبواب التي تغلق هي الآذان. والعبارات الباقية تشير إلى انحلال قوى النطق والغناء.

واستطرد سليمان الحكيم واصفاً حياة الشيخوخة بالعبارات التالية: «وأيضاً يخافون من العالي، أي يوم يفرع الرجال من العلو، وفي الطريق أهوال، أي يتخوفون من أخطار الطريق، واللوز والجندب يستقل، وتموت الرغبة. عندئذ يمضي الإنسان إلى مقره الأبدى، ويطوف النادبون في الشوارع» (جامعة ١٢: ٥). نلاحظ هنا نوعاً من الوصف الحرفي الذي يختلف عن الأعداد السابقة. فالطاعنون في السن يخافون من العالي، أو الأماكن العالية، ويتهيّبون من الخروج والسير في الطريق. أما الحديث عن اللوز الذي يزهر في الربيع، فإن الجندب أو الجراد يفقد الرغبة حتى في أكله أو التزود به. وهذا يشير إلى حالة الطاعن في السن، الذي يفقد كل رغبة أو شهوة. وعندما يذهب إلى مقره الأبدى، أي عندما يموت، يطوف النادبون في الشوارع، إذ يندبه الأهل والأقرباء والأصدقاء والمعارف.

إنها بالحق صورة واقعية لحياة الإنسان عندما يغدو شيخاً. ولهذا ينصح الحكيم الشاب أن يذكر الله خالقه في أيام شبابه، وقبل أن تأتي عليه أيام الشيخوخة ونهاية العمر. وقبل أن تزول منه القوة، ويخمد نشاطه وحماسه، وتنتهي طموحاته وآماله، ويتوقف عن أي عمل. إن الإيمان بالله والاعتماد عليه يجب أن يكون في سن الشباب، سن القوة والحركة الدائمة، سن الطموح والآمال. إذ عندها يكون المرء في كامل قوّته، ويستطيع أن يقدم لله خالقه، أفضل ما عنده، وأجمل أيام عمره. فهل تراك مستمعي الشاب تسمع لنصيحة الحكيم؟ فتذكر خالقك في أيام شبابك؟

صديقي المستمع، كتب النبي داود في المزمور المئة والتاسع عشر قائلاً: « بما يزكيّ الشاب طريقه. بحفظه إياه حسب كلامك » (مزمور ١١٩: ٩). أو بتعبير آخر: بما يزكيّ الشاب مسلكه؟ بطاعته لكلمة الله. أي أن الشاب ينقي مسلكه أو طريقه عندما يطيع كلمة الله الحيّة. وعندما يسلك الشاب بحسب كلمة الله ويطيعها، فإن الله يحفظه من السقوط في براثن هذا العالم الفاسد. ولهذا أضاف النبي داود قائلاً: « خبأت كلامك في قلبي لكيلا أخطئ إليك » (مزمور ١١٩: ١١). فكلمة الله كما جاءت في الكتاب المقدس عندما نقرأها ونؤمن بها، تطهر قلوبنا من الداخل، وتبعدنا عن فعل الخطيئة والإثم.

إن عالمنا مع الأسف يا صديقي مليء بالشر والفساد والاغراءات الكثيرة، خاصة بالنسبة للشباب والشابات. وإذا لم يذكر الشاب خالقه في هذا العمر، أي يؤمن بالله ويعمل الفداء الذي وفره له بواسطة المخلص المسيح، فإنه لن يستطيع مجابهة تيار الشر والفساد. وعندما يذكر المرء خالقه في سن الشباب، فهو لا يحفظ نفسه فقط، بل يحصنها لكي تستمر في الطريق القويم. ويختبر أيضاً سلام الله العجيب في حياته. وهكذا عندما يصبح رجلاً ثم شيخاً، يتأكد من عناية الله له في مسيرته، وينظر بثقة إلى الله، ويكون عنده رجاء بالمستقبل الأبدى.

هل تعلم مستمعي أن معظم الذين اختبروا خلاص الله، كانوا في سن الشباب؟ ولهذا نجد أن الله باركهم وحقق آمالهم ومطامحهم في الحياة، وعاشوا حياة مليئة بالاطمئنان. وهناك قصص كثيرة عن شبان آمنوا بالمخلص المسيح، وصاروا بركة لنفوسهم وللكتيرين من حولهم.

فلا توجل صديقي موضوع خلاصك ومعرفتك لله المعرفة الصحيحة إلى المستقبل، لأن المستقبل غير مضمون. ومن ناحية أخرى إذا أعطاك الله عمراً، تنحل قواك عندما تصبح شيخاً كما ذكر الحكيم، وعندها يغدو من الصعب عليك اتخاذ أي قرار سليم. فهل تذكر خالقك في أيام شبابك؟